سقوطُ الأندلس: تحليل شامل وعميق للأسباب والعوامل

د. محمود إدريس علي بك

كلية الأداب والعلوم/ قصر الأخيار/ جامعة المرقب/ليبيا

mabek@elmergib.edu.ly

Abstract

The civilization of Al-Andalus has long been, and continues to be, a subject of ongoing research and debate among scholars — whether concerning its origins or the factors behind its decline and collapse. Most researchers and academics agree on several key causes that led to the disappearance of the Arab civilization in the Iberian Peninsula. Often, we find that most studies focus on these major factors, analyzing them deeply through political, social, economic, and cultural .dimensions

In my view, within all these factors lie subtle indications of deeper dimensions that allow us to look beyond the mere causes of decline, toward forming a new perspective about it. Perhaps the most important of these is that Al-Andalus, from the very beginning, was essentially a colony that possessed the elements necessary for survival and continuity for eight centuries — during which it succeeded in establishing a flourishing civilization later recognized by humanity for its uniqueness and brilliance. Moreover, it played a crucial role in igniting the light of civilization in medieval Europe. However, this civilization eventually faded away in accordance with the divine laws governing the rise and fall of civilizations .— an inevitable and natural end for any civilizational entity

Keywords: Al-Andalus, Civilization Decline, Taifa Kings, Reconquista, Almoravids, Almohads, Granada.

المُلـخص:

كانـت حضـارة الأنـدلس ولازالـت مثـار بحـث وجـدل دائـم بـين البـاحثين سـواءا مـن ناحيـة النشـأة أو عوامل السقوط والإنهيار.

ولعـل أغلـب البـاحثين والأكـاديميين إتفقـوا علـى عوامـل عديـدة كانـت هـي الأسـباب الرئيسـية فـي غيـاب شمس الحضارة العربية في شبه الجزيرة الأيبيرية.

وغالبـاً مانجـدُ أغلـب البحـوث تركـز علـى العوامـل الرئيسـية وتتناولهـا بمنظـور تحليلـي عميـق يـربط بـين الأبعاد السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية.

وفـي رأيـي قـد تكـون فـي كـل تلـك العوامـل إشـارات أخـرى لأبعـاد خفيـة تتيحُ لنـا نظـرة أبعـد مـن عوامـل السـقوط نفسـها إلـى إيجـاد نظـرة جديـدة حولـه، ولعـل أهمهـا كـون الأنـدلس كانـت منـذ البدايـة عبـارة عـن مسـتعمرة تـوافرت لهـا أسـباب البقـاء والاسـتمرارية لثمانيـة قـرون تمكنـت فيهـا مـن تأسـيس حضـارة زاهـرة شـهدت لهـا الإنسـانية لاحقـاً بـالتفرُّد والنبـوغ ناهيـك عـن دورهـا فـي إشـعال ضـوء الحضـارة لأوروبا في العصور الوسطى.

غيـر أن هـذه الحضـارة انتهـت إلـى الأفـول اسـتجابة للسـنن الإلهيـة فـي نشـأة وسـقوط الحضـارات وهـو الأمر الذي يُعدُّ نهاية حتمية ولازمة لأي كيان حضاري.

الكلمـات المفتاحيـة: الأنـدلس، سـقوط الحضـارة، ملـوك الطوائـف، حركـة الاسـترداد، المرابطـون، الموحدون، غرناطة.

مُقدَّمة: أفول شمس الحضارة (100 - 897 هـ / 711 - 1492 م)

يُمثـل سـقوط الأنـدلس، الـذي تُـوّج بتسـليم أبـي عبـد الله محمـد الصـغير مفـاتيح غرناطـة إلـى الملكـين الكـاثوليكيين، فرديناند وإيـزابيلا، فـي الثـاني مـن ينـاير عـام 1492م (الموافـق للثـاني مـن ربيـع الأول عـام 897 هــ)، نهايـة حقبـة اسـتثنائية مـن التـاريخ الإسـلامي والإنسـاني. هـذا التـاريخ لـم يكـن مجـرد سـقوط لمدينـة أو مملكـة، بـل كـان إسـدالاً للسـتار علـى مـا يقـرب مـن ثمانيـة قـرون مـن الحكـم الإسـلامي فـي شـبه الجزيـرة الأيبيريـة (711-1492م) (للمزيـد حـول هـذا التـاريخ السياسـي العـام، انظـر: Watt & Cachia, 1965).

لـم يكـن هـذا السـقوط، كمـا يُصـور أحيانـاً، حـدثاً مفاجئـاً أو وليـد معركـة واحـدة، بـل كـان نتيجـة لعمليـة تآكـل طويلـة الأمـد ومتعـددة الأوجـه، يمكـن وصـفها بــ "السـقوط الطويـل" (السـرجاني، 2011، ص. 15). بـدأت بـوادر هـذا السـقوط قبـل قـرون مـن تسـليم غرناطـة، وتحديـداً مـع انهيـار الوحـدة السياسـية المتمثلة في الخلافة الأموية بقرطبة.

إن البحث في عوامل سقوط الأندلس ليس مجرد نبش في الماضي، بل هو استقراء لسنن قيام الدول وسقوطها. لقد سقطت الأندلس عندما نخرت عوامل الضعف الداخلية جسدها، بالتزامن مع توحد وتصاعد قوة العدو الخارجي الذي انتظر بصبر لحظة الانقضاض. يصف المؤرخ المصري محمد عبد الله عنان هذا المشهد بأنه "مأساة ... نتجت عن انحلال سياسي واجتماعي، وعن تفكك في الوحدة القومية" (عنان، 1997، ج1، ص. 25).

يقدم هذا البحث المتعمق تحليلاً مفصلاً وشاملاً للعوامل السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والدينية التي أسهمت مجتمعة في هذا الانهيار، مُسلطًا الضوء على كيفية تفاعل هذه العوامل وتأثيرها المتبادل في رسم المشهد الأخير لواحدة من أزهى الحضارات في التاريخ (لنظرة عامة ممتازة، انظر: Kennedy, 1996).

المبحث الأول: العوامل الداخلية: الانهيار من الداخل

كانت البذور الأولى للسقوط كامنة في التركيبة الداخلية للمجتمع والدولة في الأندلس. ومع مرور الزمن، نمت هذه البذور لتصبح أشواكًا مزقت وحدة الصف وقوضت أركان الحكم. إن الانهيار الداخلي يسبق دائماً الهزيمة الخارجية، والأندلس كانت المثال الأوضح على ذلك.

1. التفكك السياسي: من الخلافة الموحدة إلى دويلات الطوائف

يُعدّ التفكك السياسي والانقسام على السلطة هو العامل الأخطر والحاسم في مسيرة السقوط.

أ. فتنة قرطبة وانهيار الخلافة (1009 - 1031 م):

لم تبدأ الكارثة مع ملوك الطوائف، بل بدأت بانهيار السلطة التي كانت توحدهم. كانت خلافة قرطبة في

عهد عبد الرحمن الناصر (ت. 961م) وابنه الحكم المستنصر (ت. 976م) تمثل ذروة القوة. لكن بوفاة الحكم، انتقلت السلطة الفعلية إلى حاجبه المنصور بن أبي عامر (عنان، 1997، ج2، ص. 205). ورغم قوته العسكرية، إلا أن حكمه وحكم ابنيه من بعده أفرغ منصب الخلافة الأموي من هيبته.

عندما حاول "شنجول" أن يأخذ لنفسه ولاية العهد رسمياً عام 1009م، انفجرت قرطبة في ثورة عارمة عُرفت بـ "الفتنة القرطبية". دخلت الأندلس في دوامة من الفوضى دامت أكثر من عشرين عاماً (1009-1031م)، حيث تم خلع وقتل العديد من الخلفاء. يصف ابن حيان القرطبي (ت. 1076م)، وهو مؤرخ معاصر لتلك الأحداث، هذه الفتنة بمرارة في كتابه "المقتبس"، مشيراً إلى

"استحالة الدولة" و "تفرق الكلمة" (ابن حيان، 1995، ص. 210-215). وفي عام 1031م، قرر أهل قرطبة أخيراً إلغاء منصب الخلافة نفسه وطرد آخر الأمويين، مُعلنين بذلك رسمياً نهاية الدولة الموحدة.

ب. عصر ملوك الطوائف (1031 - 1091 م):

كانت نتيجة انهيار الخلافة كارثية؛ فقد تفككت الدولة الأندلسية الموحدة إلى ما يربو على عشرين دويلة متناحرة. هذا التفكك هو ما يطلق عليه الباحث المتخصص ديفيد فاسرشتين "صعود وسقوط ملوك الطوائف" (Wasserstein, 1985, p. 110)، حيث قامت كل دويلة على أساس عرقي (كالبربر في غرناطة)، أو عسكري (كالصقالبة في بلنسية)، أو أسري (كالعرب بني عبّاد في إشبيلية).

اتسمت هذه الفترة بالخصائص المُدمِّرة التالية:

• الصراعات الداخلية المستمرة: انشغل ملوك الطوائف بالحروب فيما بينهم. يذكر ابن عذاري المراكشي كيف أن المعتضد بن عبّاد في إشبيلية قضى عهده في التوسع على حساب جيرانه المسلمين (ابن عذاري، 1983، ج3، ص. 225-230).

• الاستعانة بالأعداء: في سابقة خطيرة، لم يتردد هؤلاء الملوك في الاستعانة بالمالك المسيحية الشمالية. يروي ابن بسام الشنتريني (ت. 1147م) في كتابه "الذخيرة" كيف أن المأمون بن ذي النون، أمير طليطلة، استعان بفرناندو الأول ملك قشتالة لغزو بلنسية المسلمة (ابن بسام، 1979، ج4، ق1، ص. 190).

• دفع الجزية (Parias): أصبحت هذه الدويلات الضعيفة تدفع جزية سنوية باهظة لملوك قشتالة. يذكر المؤرخ حسين مؤنس أن هذه الأموال "كانت هي التي تموّل حركة الاسترداد المسيحية" (مؤنس، 1987، ص. 312). ويؤكد ابن خلدون أنهم "كانوا يؤدون الجزية لملوك الجلالقة (المسيحيين) ... وكانت قوة للمشركين على المسلمين" (ابن خلدون، 2000، ج4، ص. 350).

سقوط طليطلة، العاصمة الحصينة، عام 1085م في يد ألفونسو السادس، لم يكن إلا النتيجة الطبيعية لهذا التشرذم المخزي.

2. التوترات الاجتماعية والعرقية: غياب "الأمة" الواحدة

لم يكن المجتمع الأندلسي، على الرغم من ثقافته الزاهرة، كتلة واحدة متجانسة. ومع غياب سلطة مركزية قوية، برزت الانقسامات العرقية والقبلية القديمة (للمزيد حول التركيبة الاجتماعية للأندلس، انظر: سالم، 1997، ص. 115-120).

• العصبية القبلية (القيسية واليمانية): منذ الأيام الأولى للفتح، حمل العرب معهم تنافسهم التقليدي القديم. ظهر هذا الصراع في توزيع الأراضي، وفي التنافس على المناصب، وكان سبباً في ثورات وحروب أهلية مبكرة أضعفت الدولة (العبادي، 1978، ص. 144).

• الصراع العربي-البربري: شكل البربر غالبية الجيش الذي قام بالفتح، لكنهم شعروا غالباً بالتمييز من قبل الطبقة الحاكمة العربية. أدى هذا إلى "ثورة البربر الكبرى" عام 741م التي كادت أن تنهي الوجود الإسلامي (مؤنس، 1987، ص. 112). ظلت هذه الحساسية قائمة، وانفجرت مرة أخرى في "فتنة قرطبة" وعندما قامت دويلات الطوائف. (لتحليل أعمق لهذا الانقسام، انظر: Kennedy, 1996, p. 30-35).

• المولدون وثورة ابن حفصون: المولدون (سكان أيبيريا الأصليون الذين اعتنقوا الإسلام) شكلوا غالبية السكان. أدى شعور بعضهم بالتهميش إلى أخطر ثورة واجهتها الإمارة الأموية، وهي ثورة عمر بن حفصون (880-917م)، الذي ارتد لاحقاً عن الإسلام وتحالف مع المسيحيين، ولم يُقضَ عليه إلا في عهد عبد الرحمن الناصر (ابن القوطية، 1989، ص. 95-100).

3. الترف والانحطاط الأخلاقي (تراجع روح الجهاد)

لا يمكن إغفال العامل الأخلاقي والنفسي. ففي عصور القوة، كان الجهاد قوة دافعة للدولة. لكن مع مرور الزمن، وخاصة في عصر الطوائف، تراجعت هذه الروح وحل محلها الانغماس في الترف والبذخ.

يصف المقري (ت. 1632م) في كتابه "نفح الطيب" حياة البذخ والترف التي عاشها ملوك الطوائف، فبنى المعتمد بن عبّاد في إشبيلية قصوراً فخمة (المقري، 1968، ج4، ص. 351-355). هذا الترف، وإن أنتج أرقى نماذج الأدب الأندلسي، إلا أنه كان على حساب الاستعداد العسكري. (تصف ماريا روزا مينوكال هذا العصر بأنه "زخرف الدنيا"، حيث بلغ التنافس الثقافي ذروته بالتزامن مع الضعف السياسي: Menocal, 2002, p. 45-50).

هذا الانغماس في الملذات أدى إلى فتور الحمية الدينية والروح القتالية (للمزيد حول هذا الجانب، انظر: سالم، 1997، ص. 280-285). وعندما حاصر ألفونسو السادس طليطلة، لم تتحرك أي دويلة لنجدتها بشكل جدي (عنان، 1997، ج2، ص. 410).

المبحث الثاني: العوامل الخارجية: الضغط المتواصل من الشمال

تزامنت عوامل الضعف الداخلية مع تزايد قوة وخطورة الأعداء الخارجيين، الذين استغلوا الانقسام الإسلامي بذكاء وصبر، وحولوا حربهم من دفاعية إلى هجومية منظمة.

1. حركة الاسترداد المسيحية (Reconquista) وتوحد الممالك

كانت الممالك المسيحية في الشمال تنظر إلى وجود المسلمين كاحتلال مؤقت. ومنذ اللحظة الأولى للفتح، بدأت "حركة الاسترداد" (Reconquista) بمعركة كوفادونجا (722م) (O'Callaghan, 2004, p. 30).

اكتسبت هذه الحركة زخمًا هائلاً في القرن الحادي عشر للأسباب التالية:

• اكتساب الروح الصليبية: لم تعد الحرب مجرد صراع على الأرض، بل اكتسبت صبغة "حرب مقدسة" صليبية. قام البابا ألكسندر الثاني ثم أوربان الثاني، بدعم حروب المسيحيين في أيبيريا ومنحوا صكوك الغفران للمشاركين فيها. (لتحليل المنظور الإسلامي لهذه الحروب، انظر: Hillenbrand, 1999, p. 118-120). هذا الدعم جلب متطوعين وفرساناً من جميع أنحاء أوروبا، خاصة من فرنسا، للمشاركة في قتال المسلمين (Fletcher, 1992, p. 115).

• استغلال التفكك الإسلامي: استغل ملوك مثل ألفونسو السادس تفكك الطوائف ببراعة، فأخذ منهم الجزية ليمول جيشه، ثم استخدمهم ضد بعضهم البعض.

• الوحدة المسيحية (الزواج الكاثوليكي): كانت اللحظة الحاسمة هي زواج الملك فرديناند الثاني ملك أراغون والملكة إيزابيلا الأولى ملكة قشتالة عام 1469م. هذا الزواج وحد أكبر مملكتين مسيحيتين في أيبيريا، وخلق قوة ضاربة لا يمكن لدويلة غرناطة المنعزلة مواجهتها (Harvey, 1990, p. 320).

2. التدخلات العسكرية من شمال أفريقيا: (الدواء المر)

في لحظات الخطر الشديد، كانت الاستغاثة تأتي من القوى الإسلامية الفتية في شمال أفريقيا. ورغم أن هذه التدخلات أطالت عمر الحكم الإسلامي في الأندلس، إلا أنها كانت سيفاً ذا حدين.

أ. دولة المرابطين (1086 - 1147 م):

بعد سقوط طليطلة، أطلق المعتمد بن عبّاد استغاثته الشهيرة لأمير المرابطين يوسف بن تاشفين، قائلاً قولته الخالدة: "لأن أرعى الجمال لسلطان مراكش، خير لي من أن أرعى الخنازير لملك قشتالة" (المقري، 1968، ج4، ص. 368).

• معركة الزلاقة (1086 م): عبر يوسف بن تاشفين وحقق نصراً ساحقاً على جيوش قشتالة في معركة "الزلاقة"، أنقذ الأندلس من سقوط وشيك (ابن عذاري، 1983، ج4، ص. 25-32).

• "العلاج" المرابطي: لكن ابن تاشفين أدرك أن ملوك الطوائف هم أصل الداء. وبناءً على فتاوى من علماء المشرق والمغرب، عاد عام 1090م فقام بخلع جميع ملوك الطوائف وضم الأندلس إلى دولته (عنان، 1997، ج3، ص. 45).

• النتيجة: رغم أن هذا التوحيد كان ضرورياً عسكرياً، إلا أن المرابطين، بأسلوبهم الصحراوي "الخشن"، لم يتأقلموا مع الطبيعة "المترفة" للأندلسيين، مما خلق فجوة ثقافية ونفوراً داخلياً (للمزيد حول طبيعة دولة المرابطين وعلاقتها بالأندلس، انظر: مؤنس، 1997، ص. 180-195).

ب. دولة الموحدين (1147 - 1228 م):

عندما ضعفت دولة المرابطين، حلت محلها "دولة الموحدين". عبر الموحدون وسيطروا على الأندلس، ونجحوا في تحقيق انتصار كبير في معركة الأرك (Alarcos) عام 1195م (ابن الأثير، 1987، ج10، ص. 115).

• معركة العقاب (Las Navas de Tolosa) (1212 م): كانت هذه المعركة هي "الضربة القاصمة". حشد الموحدون جيشاً هائلاً. في المقابل، نجح البابا إينوسنت الثالث في إعلانها "حرباً صليبية"، فتوحدت جيوش الممالك المسيحية الأربعة (O'Callaghan, 2004, p. 142).

• كانت الهزيمة الإسلامية في "العقاب" كارثية ومدمرة. يصف ابن الأثير هذه الواقعة بأنها "المصيبة التي لم يصب الإسلام بمثلها" (ابن الأثير، 1987، ج10، ص. 254).

• الانهيار الكبير: فتحت هزيمة العقاب أبواب الأندلس. وفي غضون 40 عاماً فقط، تساقطت الحواضر الإسلامية الكبرى تباعاً: قرطبة (1236م)، وبلنسية (1238م)، وإشبيلية (1248م) (عنان، 1997، ج4، ص. 410-425).

المبحث الثالث: المشهد الأخير: مملكة غرناطة (1238 - 1492 م)

بعد كارثة العقاب، لم يتبق للمسلمين سوى "مملكة غرناطة" تحت حكم بني نصر (أو بني الأحمر). (يُعد كتاب "الإحاطة في أخبار غرناطة" لـ لسان الدين بن الخطيب (ت. 1374م) المصدر الأول لتاريخ هذه الدولة من الداخل، كونه كان وزيراً فيها: ابن الخطيب، 2003).

1. سر الصمود الطويل (قرنان ونصف)

استطاعت هذه المملكة الصمود لأكثر من 250 عاماً إضافية، لعدة أسباب: موقعها الجغرافي الوعر، دبلوماسيتها البارعة، التبعية المؤقتة لقشتالة بدفع الجزية، والدعم المغربي المتقطع من الدولة المرينية (لتحليل مفصل لهذه الفترة، انظر: Harvey, 1990, p. 15-25).

2. عوامل السقوط النهائي لغرناطة

كان سقوط غرناطة حتمياً، وقد تسارعت وتيرته للأسباب الحاسمة التالية:

• توحد قشتالة وأراغون: زواج فرديناند وإيزابيلا عام 1469م أنهى لعبة التحالفات؛ أصبحت غرناطة تواجه عدواً واحداً موحداً (Harvey, 1990, p. 320).

• الحرب الأهلية الغرناطية: كان هذا هو المسمار الأخير في نعش الأندلس. اندلع صراع مرير على العرش بين السلطان أبو الحسن علي (الملاي حسن) وابنه أبو عبد الله محمد الصغير (Boabdil). (يقدم ابن الخطيب في "الإحاطة" تفاصيل دقيقة عن الصراعات الداخلية في البلاط النصري التي مهدت لهذا الانقسام: ابن الخطيب، 2003، ج1، ص. 445-450).

• استغلال فرديناند للصراع: استغل فرديناند هذا الصراع بذكاء. فعندما وقع أبو عبد الله الصغير في الأسر، أطلق فرديناند سراحه ودعمه بالمال والسلاح ليحارب أباه وعمه (الزغل) (عنان، 1997، ج8، ص. 215-220).

• حرب الاستنزاف (1482-1492): كانت حرباً منهجية استمرت عشر سنوات، سقطت فيها حصون غرناطة واحداً تلو الآخر: رندة (1485م)، ولوشة (1486م)، ومالقة (1487م)، ثم ألمرية وبسطة (1489م) (للمزيد حول التسلسل الزمني لسقوط هذه المدن، انظر: Lane-Poole, 1886, p. 220-230).

3. الحصار والتسليم (1491 - 1492 م)

في ربيع 1491م، لم يتبق سوى مدينة غرناطة نفسها. ضرب فرديناند وإيزابيلا حصاراً خانقاً حول المدينة، وقاما ببناء معسكر "سانتا في" (Santa Fe) كدليل على نيتهم عدم الرحيل.

بعد ثمانية أشهر من الحصار، ومع نفاد المؤن وغياب أي أمل في نجدة، لم يجد أبو عبد الله الصغير مفراً من التفاوض على التسليم. تم توقيع "معاهدة تسليم غرناطة" في 25 نوفمبر 1491م (Harvey, 1990, p. 335).

وفي 2 يناير 1492م، سلم أبو عبد الله مفاتيح قصر الحمراء. يصف المقري المشهد الأخير بمرارة، مشيراً إلى "الزفرة الأخيرة" التي أطلقها أبو عبد الله وهو ينظر إلى غرناطة من تلة عُرفت منذ ذلك الحين بـ "زفرة العربي الأخيرة" (المقري، 1968، ج7، ص. 10).

لم تدم بنود المعاهدة طويلاً، فبعد سنوات قليلة بدأت عمليات التنصير القسري ومحاكم التفتيش، التي انتهت بالطرد النهائي للموريسكيين عام 1609م (للمزيد حول مصير المسلمين بعد السقوط، انظر: سالم، 1997، ص. 450-460).

خاتمة: سُنَنُ التاريخ والدَّرس البليغ

إن سقوط الأندلس بعد ثمانية قرون من الإشعاع الحضاري لم يكن مجرد هزيمة عسكرية، بل كان درساً تاريخياً بليغاً يؤكد أن "الانهيار الداخلي هو المقدمة الحتمية للسقوط الخارجي".

لقد سقطت الأندلس يوم أن تفككت وحدتها السياسية في "فتنة قرطبة"، ويوم أن فضّل "ملوك الطوائف" مصالحهم الشخصية الضيقة على المصلحة العليا للأمة، ويوم أن استعانوا بالعدو على أخيهم. سقطت يوم أن تغلبت "العصبية" القبلية والعرقية على رابطة "الدين" و "الأمة".

تُجسد مأساة الأندلس نظرية ابن خلدون في أطوار الدولة، من البداوة والقوة، إلى الحضارة والترف، ثم إلى الهرم والشيخوخة فالانهيار (ابن خلدون، 2000، المقدمة، ص. 175). لقد كانت الأندلس في عصر بني نصر في طور الهرم، تنتظر فقط من يدفعها الدفعة الأخيرة، وهو ما فعله فرديناند وإيزابيلا بكفاءة.

إن قصة الأندلس تظل شاهداً حياً على أن الوحدة السياسية، والعدل الاجتماعي، واليقظة العسكرية، والتمسك بالهدف المشترك، هي الضمانات الحقيقية لبقاء الدول والحضارات.

وبالإضافة إلى هذه العوامل السابقة التي أسهمت في السقوط النهائي للأندلس والتي اتفقت الأبحاث قديماً وحديثاً حولها في نفس الوقت الذي لازالت فيه تستقبل نتائجاً جديدة في كل يوم فإن هناك عوامل أخرى وتحليلات أخرى يمكن أن نستشفَّها من خلال هذه القرون الثمانية التي ظلت فيها الأندلس تحت الحكم العربي وهي حسب وجهة نظري الشخصية تتمحور حول الآتي: _

—أسهم العامل الجغرافي(الموقع) في سقوط الأندلس في نهاية المطاف بشكل نهائي كعامل طرد منذ البداية لم ينتبه العرب إليه مع إصرارهم على أن الأندلس هي امتداد لرقعة العالم الإسلامي.

فعلى الرغم من المسافة التي لا تكاد تذكر بين شبه الجزيرة الأيبيرية والشمال الأفريقي عبر مضيق جبل طارق إلا أن هذه الأرض كانت غريبة عنهم ولم يألفوها وإن استمروها، وهي الأخرى ظلت تحنُّ لأصلها الأوربي البحت.

وكون هذه الأرض الوطن تعرضت أكثر من مرة لمحاولة استرداد دليل قاطع على أنها في باطنها لازالت وطناً غريباً وأن صلاتهُ التاريخية بأمه أوروبا متجذِّرة داخله ولم يستطع العرب-بكل زخم تواجدهم وحضارتهم وتقبل أهل الأرض لهم واندماجهم معهم-لم يتمكنوا من محوها بالتالي لم تكتسب هوية عربية خالصة ولم تفقد حنينها لأصولها وهويتها الأوروبية.

—كل عوامل سقوط الأندلس-في رأيي-تدل بما لا يدع مجالاً للشك أن هذه الأرض كان لزاماً ألا يكتب لها أن تكون عربية خالصة في يوم من الأيام فهي كانت أقرب إلى نظام المستوطنة أو

المستعمرة الخاصة إذا صح التعبير (مع تقييد هذه الألفاظ في معناها لخصوصية الأندلس كحدث تاريخي)

فالاستيطان الإغريقي في الشمال الأفريقي على سبيل المثال ترك الأرض هناك تحمل سمات القادمين حتى اليوم لكنها نفضتهم كأغراب وقذفت بهم إلى أرضهم الأصلية في نهاية المطاف فبقي الاستيطان الإغريقي جزءا لا يتجزأ من تاريخ المنطقة الأثري والحضاري لكنهُ لم يستطع منحه صك الملكية الأبدية.

وحتى لو وضعنا ميزة الثماني قرون في النموذج الأندلسي كأمد زمني لا يستهان به لمحاولة تأكيد ملكية المكان فإن واقع أن الوجود العربي طيلة هذه الفترة كان مُتأرجحاً ما بين الاستقرار وشفير الفقد والخسارة يؤكد أنه كان مُفتقداً للرسوخ الكلي الذي كان يمكن أن يُتيح له إمكانية تعريبها بشكل كامل حتى تفقد صلتها بالأم الكبرى أوروبا مع إيماني الشخصي أن محاولة التعريب حتى لو لاقت استقرارا كلياً ما كان لها أن تنجح لجغرافية المكان المختلفة سابقة الذكر وعدم وجود امتداد حضاري سابق عبر عصور التاريخ قد يكون له صلات تاريخية عرقية ضاربة في عمق التاريخ كما حدث في منطقة الشمال الأفريقي وهو الذي لم يكن له وجود في النموذج الأندلسي.

وأخيراً وجب علينا التنويه على النقاط التالية..

1_ لم يكن الأندلس وطناً آمناً بقدر ما كان ملاذاً آمنا يتقبل أي شيء متاح ولا يرفض أي شيء قد تأتي به الأحداث ولم ينبُذ التأثيرات العربية التي كانت في كثير من الأحيان وليدة تأثير الأحداث السياسية في المشرق العربي فالبحث عن وطن بديل في فترة من الفترات أسهم في تكثيف الزاد الحضاري العربي والإسلامي في الأندلس في محاولة لتعويض الحنين إلى المشرق العربي للمطرودين أو الفارين من هناك، وهنا تجب الإشارة إلى أن الزاد الحضاري المشابه لما في الشرق ربما كان هو السبب الرئيسي في ولادة ذلك الانطباع المُتأصل عند الكثيرين أن الأندلس امتداد وجزء لا يتجزأ من العالم العربي الإسلامي وأنها وطنٌ سليب.

2_ القول بأن الأندلس كان مستعمرة أو مستوطنة لم يكن ليُضفي عليه طابع القسوة والطغيان الشائع في مثل هذا النوع من التواجد وعليه يمكن القول أنهُ استعمار خاص لا يتكرر كثيراً وليس له مثيل تاريخي مشابه خالي من الغطرسة والطغيان المُصاحبان دوماً لأي استعمار، تقبَّله سكان الأندلس لأنه كان قد جاءهم مع دين جديد يمتازُ بالسماحة والرحمة وهذا أحد أسباب بقاء العرب هناك كل تلك الفترة فلولا الدين الإسلامي ربما كان خروج العرب من الأندلس سيكون مُبكراً جداً.

وهذا الاستعمار الخاص يحسب له أنه أضاء جهل أوروبا العصور الوسطى وأتاح له في نفس الوقت أسباب القضاء على الوجود العربي لاحقاً.

أيضاً ما كان لحضارة بكل تلك العظمة أن تنموا في ظل أي طغيان أو جبروت وعليه يمكننا أن نقول عنهُ أنهُ الاستعمار الوحيد الذي لا يمكن أن ننظر إليه إلا بعين التقدير والاحترام.

3_هو حالة فريدة ومُتميزة من الفرز الحضاري ذات سمات وصفات خاصة جدا، هذه الحالة نتجت عن امتداد الفتوحات الإسلامية وكان للقدر دوره في توجيه أنظار العرب إليها بالتالي هي محض صدفة تاريخية فريدة من نوعها وكونه كذلك لا يجعلنا نخصُّ بها أحداً بالفضل دون غيره أو نعتبرها وطناً ضائعاً للعرب دون غيرهم.

فهي نتاج تفاعلات إنسانية مشتركة بين العرب وسكان البلاد الأصليين وساهم كل من الطرفين كلٌ من جانبه في دعم وظهور وتميز هذه الحضارة حسب الظروف التي توافرت له في حينه ليكون لهما الفضل معاً في خلق هذا الفردوس الأندلسي الفريد.

قائمة المراجع والمصادر

أولاً: المصادر العربية التراثية

1. ابن الأثير، عز الدين. (1987). الكامل في التاريخ (تحقيق: عمر تدمري). (11 مجلداً). دار الكتاب العربي.
2. ابن بسام الشنتريني. (1979). الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (تحقيق: إحسان عباس). (8 مجلدات). الدار العربية للكتاب.
3. ابن حيان القرطبي. (1995). المقتبس من أنباء أهل الأندلس (تحقيق: عبد الرحمن علي الحجي). دار الثقافة.
4. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد. (2000). تاريخ ابن خلدون (ديوان المبتدأ والخبر) (تحقيق: خليل شحادة). (8 مجلدات). دار الفكر.
5. ابن الخطيب، لسان الدين. (2003). الإحاطة في أخبار غرناطة (تحقيق: يوسف علي طويل). (4 مجلدات). دار الكتب العلمية.
6. ابن عذاري المراكشي، أحمد بن محمد. (1983). البيانُ المُغرِب في أخبار الأندلس والمَغرِب (تحقيق: ج. س. كولان وإ. ليفي بروفنسال وإحسان عباس). (4 مجلدات). دار الغرب الإسلامي.

7. ابـن القوطيـة، محمـد بـن عمـر. (1989). تـاريخ افتتـاح الأنـدلس (تحقيـق: إبـراهيم الأبيـاري). دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني.
8. المقـري، أحمـد بـن محمـد التلمسـاني. (1968). نفـح الطيـب مـن غصـن الأنـدلس الرطيـب (تحقيـق: إحسان عباس). (8 مجلدات). دار صادر.

ثانياً: المراجع العربية الحديثة

9. العبادي، أحمد مختار. (1978). في تاريخ المغرب والأندلس. مؤسسة شباب الجامعة.
10. السـرجاني، راغـب. (2011). قصـة الأنـدلس مـن الفـتح إلـى السـقوط (ط. 1). مؤسسـة اقـرأ للنشـر والتوزيع والترجمة.
11. سـالم، السـيد عبـد العزيـز. (1997). تـاريخ المسـلمين وآثـارهم فـي الأنـدلس. مؤسسـة شـباب الجامعة.
12. عنان، محمد عبد الله. (1997). دولة الإسلام في الأندلس (ط. 5). (8 أجزاء). مكتبة الخانجي.
13. مـؤنس، حسـين. (1987). فجـر الأنـدلس: دراسـة فـي تـاريخ الأنـدلس مـن الفـتح الإسـلامي إلـى قيـام الدولة الأموية. (ط. 2). دار الرشاد.
14. مؤنس، حسين. (1997). تاريخ المغرب وحضارته. العصر الحديث للنشر والتوزيع.

ثالثاً: المراجع الأجنبية (والأكاديمية الغربية)

15. Fletcher, R. (1992). Moorish Spain. Weidenfeld & Nicolson.
16. Harvey, L. P. (1990). Islamic Spain, 1250 to 1500. The University of Chicago Press.
17. Hillenbrand, C. (1999). The Crusades: Islamic Perspectives. Edinburgh University Press.
18. Kennedy, H. (1996). Muslim Spain and Portugal: A Political History of al-Andalus. Longman.
19. Lane-Poole, S. (1886). The Moors in Spain. T. Fisher Unwin.

20. Menocal, M. R. (2002). The Ornament of the World: How Muslims, Jews, and Christians Created a Culture of Tolerance in Medieval Spain. Little, Brown and Company.
21. O'Callaghan, J. F. (2004). Reconquest and Crusade in Medieval Spain. University of Pennsylvania Press.
22. Wasserstein, D. J. (1985). The Rise and Fall of the Party-Kings: Politics and Society in Islamic Spain, 1002-1086. Princeton University Press.
23. Watt, W. M., & Cachia, P. (1965). A History of Islamic Spain. Edinburgh University Press.